

إختبار الميل نحو تقاسم التاريخ

دراسة تطبيقية لحالات بعض المؤرخين المعروفين

للدكتورة حكمت أبو زبير

استطاع تيرمان^(١) في دراسته للأطفال الموهوبين أن يلقى ضوءاً على العوامل التي أدت إلى نجاحهم في الحياة ، كل في ميدانه .

وهناك الكثير من الدراسات التي تستعرض نمو ميل وقدرات التلاميذ في بعض المواد الدراسية كالقراءة والحساب^(٢) .

وتعتمد بعض هذه الدراسات على تحليل لهذه القدرات والميول وتطورها في شخص معين بالذات ، وتعرف باسم دراسة الحالات (Case Studies)

وللدكتورة فلمنج^(٣) تعليق جدير بأن نسجله لها في هذا الصدد هو :

ان أولئك التلاميذ الذين أحرزوا نجاحاً في دراسة التاريخ لم تدرس حالتهم دراسة تحليلية ، كما حدث في الدراسات المشابهة كالقراءة والكتابة الدارجة ، بيد أن تلك الدراسات قد أشارت بوضوح إلى أن هناك رابطة قوية بين النجاح وبين الحالة الاجتماعية والاقتصادية ، وبين مدى ما حصله التلميذ من خبرات وما وعاه من معلومات .

Terman, Lewis M. and Oden, Melita H. et al. The Gifted Child Crows (١)
Up. Twenty-five Years Follow-up of a Superior Group Stanford University Press.
Stanford. California. Vol IV., Genetic Studies of Genius 1947.

Fred, J. Schonell : Backwardness. In The Basic Subjects, Oliver and (٢)
Boyd, Edinburgh and London, 1946.

Fleming, C. M. Research and the Basic Curriculum. University of London (٣)
Press Ltd. Second Edition, 1952. pp 109 - 110.

كما أنه توجد دلائل أخرى توصلنا الى تقييم قدرة التلميذ العامة ، وعاداته الناجحة في الاستذكار كالمثابرة ، والأمانة في التحصيل ، والتحرز من عوامل التشتت . كما أن للصحة العامة وسلامة الحواس ، ولا سيما حاستا الابصار والسمع أثرها الهام ، الى جانب التدريس الناجح ، والكتب المدرسية الملائمة ، وشعور التلميذ بالمسئولية ، واستعداده لتقبل مثل هذه المسئولية .

في هذه الفقرة لفتت (فلمنج) الأنظار الى العوامل التي يمكن أن تؤدي الى النجاح في تعلم التاريخ ، كذلك بينت بوضوح أن طريقة (دراسة الحالات) طريقة هامة في بحث مشكلة تعلم التاريخ . وثم عامل واحد ضمنته أفكارها ، وإن كانت مرت به مر الكرام على ماله من أهمية ، نرى أن نلفت النظر اليه وهو الميل (Interest) ، ذلك الذي أصبح يحتل مكانا في جميع نظريات التعلم .

ولما لم تكن هناك طريقة أفضل لمعرفة تطور الميل نحو مهنة من المهن أو مادة من المواد الدراسية ، الا بتقصي عوامل نجاح هؤلاء الناجحين في هذه المهنة أو تلك المادة ، رأيت أن أتبع بالدراسة ، تراجم بعض المؤرخين الناجحين سواء أكانت تراجم ذاتية (Autobiographies) أو غيرية (Biographies) ورأيت أن هذه الطريقة هي أفضل الطرق المسورة والتي تدنو من طريقة دراسة الحالات دنوا كبيرا ، مع ادراكى لحقيقة العيوب التي تعاني منها (دراسة السير) والتي من شأنها أن تقلل من القيمة الموضوعية للنتائج التي حصلنا عليها ويمكن اجمالها فيما يلي :

١ - ان الصورة التي يصورها لنا الكاتب ، لا نستطيع الاطمئنان الى أنها الصورة الدقيقة التي تصور الحقيقة من جميع نواحيها ولا سيما من الناحية التي تتطلبها في مثل هذه الدراسات الموضوعية ، وذلك مع ملاحظة الاحتياطات التي تراعى في هذا المجال^(١) .

Allport, Gordon W. Personality. A Psychological Interpretation. New York (١) Henry Holt & Company. 1937. p. 395

٢ - ويلاحظ أيضا على كتاب السير أنهم - وقد يكون هذا رغما عنهم - يجانبون الصواب فيما ينقلون إلينا من تراجم ، وفي هذا ما يعارض طريقة البحث في علم النفس الحديث ، التي تنادى بوجود تحرى الدقة في المعلومات عن الشخصية التي يترجم لها (١) ، هذا بالإضافة إلى الافتقار إلى معلومات أساسية عن الشخصية مثل مستوى القدرة العامة ، وأنماط السلوك وصفاتهم الشخصية .

٣ - وثم عيب آخر ، يبدو واضحا هو أن تلك التراجم أو السير تتناول قصص نجاح أبطالها في ميادينهم الدراسية ، فهل من الممكن أن تطبق هذه على التلاميذ في المدارس العامة ؟ !

ومع هذا كله ، فإن من المستطاع أن تطبق دراسة السير في تحليل عوامل نجاح بعض الناجحين في دراسة التاريخ ، ويمكن تلخيصها فيما يلي :

١ - استخدم الكثيرون من علماء النفس في دراسة الحالات طريقة السير هذه ، أمثال (كاتل Cattell) (٢) و (وودز Woods) (٣) و (كوكس Cox) (٤) .

وهم يعتقدون أن الدراسات السيكولوجية المؤسسة على الحقائق التاريخية والمقتبسة من سير الغابرين والحاضرين ، تمتاز لا بطرافتها فحسب ، ولكن بقدرتها أيضا على إيصالنا إلى نتائج تقريبية .

٢ - غير أنه يجب أن نلفت الأنظار إلى النتائج التي نصل إليها عن طريق هذا التحليل يجب أن تؤخذ بشيء من الحذر (٥) ، أي أن قيمتها

(١) Terman, L.M. editor to Cox, C.M. The Early Mental Traits of Three Hundred Geniuses, Genetic Studies of Genius, Vol. II. California Stanford University Press, 1926, Preface p. VII

(٢) Cattell, J. Mckeen, " A Statistical Study of Eminent Men. " Popular Science Monthly, February, 1903. pp. 359 - 377.

(٣) Woods, Frederick Adams. Mental and Moral Heredity in Royalty : A Statistical Study in History and Psychology, New York. Holt 1906.

Cox. C.M. Op. Cit.

(٤) كوكس : المرجع المذكور .

(٥) كوكس : (Cox) المرجع السابق : ص ٦

الموضوعية مرتبطة بهذا الشخص بعينه في ظروف معينة . وبعبارة أدق : يجب أن تؤخذ كميات لأفراد أحرزوا نجاحا في ظروف مواتية .

الأسس التي بنى عليها اختيار الشخصيات التاريخية :

أرى من المفيد أن أخص الأسس التي بنيت عليها اختياري للثلاث شخصيات وهي :

- ١ - تمثل كل شخصية نمطا مستقلا في الاتجاه ، ولون الدراسة التاريخية .
- ٢ - جميع المختارين من المؤرخين قد ترجموا لأنفسهم أو كتبوا مذكراتهم
- ٣ - جميع المؤرخين ينتمون الى بيئة واحدة - البيئة الانجليزية - لكي تيسر مقارنتهم بعضهم ببعض وهم : (تريقليان) ، و (جون ستوارت مل) ، و (جيون) .

ولقد شاءت (كوكس) في بحثها المذكور أن تضم في قائمة الشخصيات الموهوبة المؤرخين : الثاني والثالث^(١) ، فقررت مستوى القدرة العقلية العامة (ملل) بـ ١٩٠ درجة^(٢) ، و (جيون) بين ١٤٥ - ١٥٥ درجة^(٣) ، ولم يصل اليها القدرة العقلية العامة (لتريقليان) المؤرخ المعاصر ، وربما لهذا السبب قد أغفلته قائمة (كوكس) .

ولقد رأيت ألا أكتفى بما كتبه هؤلاء عن أنفسهم^(٤) ، وأن أرجع الى ما كتبه

(١) قدر مستوى القدرة العامة ، ثلاث حكام منفردين وهم تيرمان (Terman) ، ميرل (Merrill) كوكس (Cox) ، أنظر المرجع السابق . المقدمة ص VIII .
(٢) كوكس (Cox) المرجع السابق ص ٧٠٧ .
(٣) كوكس (Cox) المرجع السابق ص ٥٢٨ .

(٤) Trevelyan, G. M. An Autobiography and Other Essays, London, Longmans, Green and Co. 1949. pp 1-51 - ٥١ - ١ ص

- Mill, John Stuart : Autobiography, Preface by Laski, H. J. The World's Classics - Geoffrey Cumberlege, London, Oxford University Press 1942.
- Gibbon, Edward, The Autobiography of Edward Gibbon, Edited by Oliphant Sineaton, Everyman's Edition 1911.

الآخرون عنهم ؛ لأن في هذا المنهج ضمانا لتجنب ما يخشى أن تقع فيه من خطأ إذا ما اعتمادنا على أحد المصدرين منفردا .

ويجمل بنا قبل أن نأخذ في تحليل هذه الشخصيات في ضوء ما أسلفنا من أهداف لهذا البحث ، أن نحدد مشكلة أصل وتطور الميل نحو التاريخ ، ذلك لأنها مشكلة تهم المربي بوجه خاص .

لقد أصبح من المسلم به ^(١) ، أن الميل للتاريخ ميل بدائي وطبيعي معا ، سواء كان ذلك في الفرد أو الجماعة ، الصغار منهم والكبار اذا ما صب في قالب قصصى أخذ . ولعمد قريب كانت الطريقة المثلى لتدريس التاريخ هي : (الطريقة السردية) غير أنه في غضون القرن التاسع عشر ، تغيرت النظرة الى التاريخ ، وأصبح هدف طالب التاريخ هو تحرى الحقيقة والتأكد منها . الأمر الذى أثار مشكلة أخرى هي : هل سيظل التاريخ يجذب الصغار في شكله الحديث (البعيد عن الأسلوب القصصى الأخاذ ؟) كما يجذب الكبار ؟

أجاب (راويزى Rowse) ^(٢) عن هذه المشكلة عندما فرق بين مرحلتين أو على الأقل بين شكلين من أشكال الميل نحو التاريخ :

١ - ميل الأطفال للتاريخ ، يمكن أن يقارن بعلمهم للقصة .

قصة السندباد البحرى مثلا أو قصة سنوحى أو قصة الملك آرثر .

٢ - ميل الراشد الى معرفة الحقائق وتفسيرها فى القصة التاريخية التى يدرسها .

وليس من اليسير أن نجيب على هذه المشكلة أو على غيرها مما له علاقة بنفس هذا الموضوع ما لم تتبع الميول والتحصيل الدراسى للصبيبة الثلاثة

(١) فلنج (Fleming) - المرجع السابق ص ١٠٤

(٢) Rowse, A. L. The Use of History, Published by Hodder & Stoughton Ltd., for the English Universities Press, London 1946 - p. 48 (ص ٤٨)

الذين أصبحوا فيما بعد من كبار المؤرخين المشهورين ، وذلك في تصوير تحليلي يعرض لحياتهم وأوجه نشاطهم .

أولا - تريفلين (G. M. Trevelyan)^(١) :

يمكن تحديد العوامل التي وجهت ميول (تريفلين) نحو التاريخ فيما يلي :

١ - البيئة الجغرافية والتاريخية :

أمضى (تريفلين) مرحلة طفولته في مقاطعة (ووروك شاير Warwickshire) تلك البيئة التي نشأ فيها شكسبير ، وقد قام هو بوصفها عندما عبر عن مقدار تأثيرها في اتجاهاته وميوله فقال :

ياله من تراث ضخّم ، لصبي ألقى نفسه يفكر بإيمان عميق بأن الشعر والتاريخ وارتداد الريف في زهات شاعرية يخلو فيها الصبي الى نفسه هي أمتع ما في الوجود^(٢) .

و ثم حادث بالغ الأهمية في تاريخ هذا المؤرخ العظيم ، هو أنه شاهد وهو طفل دون السابعة مسرحيات شكسبير التاريخية الخالدة تمثل على مسرح شكسبير القديم (سترادفورد Stradford) .

وارتسمت بمخيلته بما فيها من أحداث الماضي التي كان لها أبعاد الأثر في تكييف اتجاهات (تريفلين) العقلية .

٢ - البيئة المنزلية :

كان لوالده - وللوالد تأثير كبير على توجيه ميول ابنه واتجاهاته العلمية ، فهو ينطبق عليه قول الشاعر :

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عوده أبوه !!

(١) تريفلين - ولد عام ١٨٧٦ ، وكان أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كمبرج ، وله مؤلفات

قيمة منها « تاريخ إنجلترا » .

(٢) تريفلين . الترجمة الذاتية المرجع المذكور ص ٣

وكان أبوه مؤرخا ، وأراد أن يخرج من ابنه مؤرخا على غرار^(١)، فاتخذ منه صديقا ، وتولى تنشئته على هذا النحو ، بجميع الوسائل التي تكفل له هذا القصد ، من بينها قص القصص ورواية الأحداث والشخصيات التاريخية الطريفة كما درجت أسرته على تغذية هذا الميل فيه بالوسائل المعينة كاللعب التي تمثل الجنود والآلات الحربية ، ورسم خطط المواقع والمعارك بصورة محسوسة ، ولا سيما معارك نابليون . هذه العادة المتأصلة في الأسرة منذ عهد بعيد ، قد أخذ بها الطفل الى حد أن كرس مدة طويلة من حياته في المستقبل كمؤرخ لدراسة وللكتاب عن المعارك والمواقع الحربية .

٣ - البيئة السياسية :

وعندما بلغ (تريقليان) الرابعة من عمره سنة ١٨٨٥ ، شارك اخوته الكبار في حماس ذلك الجو الذي تخلقه الانتخابات العامة . وعندما بلغ السادسة تبوأ والده رئاسة الوزارة^(٢) في حكومة ايرلندا في هذا الوقت الذي اتم بطابع القلق وبالحلاف بين البلدين - انجلترا وايرلندا - الأمر الذي ترك أثره في نفسية الصبي الصغير ، وذلك عن طريق خبرة غير مباشرة بالحوادث السياسية المعاصرة لالتصاقه التصاقا تاما بأبيه ، الذي كان قد تعود أن يفضى لابنه بأرائه وتعليقاته على الحوادث السياسية المختلفة .

٤ - نشأته العلمية :

الى جانب هذه العوامل البيئية التي تأثر بها (تريقليان) فقد درجت مربيته على تعليمه تاريخ انجلترا ، فكانت تقرأ له وهو لا يزال طفلا صغير كتاب (آرثر الصغير Little Arthur) ذلك الكتاب الذي كان يحكى هذا التاريخ بشكل قصصي مشوق .

(١) نشر والده ترجمة حياة « ماكولى » سنة ١٨٧٦ - أنظر الترجمة الداتية لتريقليان .

المرجع السابق ص ٦

(٢) المرجع السابق ص ٧

وعندما بلغ السادسة بدأ يدرس تاريخ فرنسا ، فاستطاع بذلك رهو في هذه السن المبكرة ، أن يتعلم أن هناك بلدا آخر الى جانب بلده ، وكما قال : (بلد له معاركه وأيامه وأمجاده الخاصة به^(١)) ومذ ذلك الحين بدأ (تريفلان) يتعود حفظ التواريخ (الأيام) والأشعار عن ظهر قلب .

٥ - الورائة الاجتماعية :

وللورائة الاجتماعية أثرها أيضا في توجيه ميول الطفل واتجاهاته . فان مادة التاريخ مثلا كانت مادة التخصص (لماكولى Macaulay)^(٢) ، المؤرخ الانجليزى الكبير الذى كان عما لوالد (تريفلان) ، ولقد كان الصبى شديد الاعجاب والحب لعمه هذا . وكما كان (ماكولى) يكره مادة الحساب ، كذلك ورث (تريفلان) هذا العداء الشديد لهذه المادة منذ حداثة .

٦ - بيئته المدرسية :

وعندما التحق بتلك المدرسة الاستقرائية (هارو Harrow) سنة ١٨٨٩ ، كانت السيادة للمناهج الكلاسيكية على غيرها من المواد الدراسية الأخرى . فهل تأثرت ميول الصبى نحو مادته المفضلة ؟

لقد استطاع (تريفلان) أن ييذ أقرانه في كتابة الشعر اللاتينى ، الى درجة شعر معها جميع من فى المدرسة بأنه سيتخصص فى اللغة اللاتينية فى مستقبل حياته ، على أن هذا لم يؤثر على قرار قداخذة وميل قد بدأه واتجاه قد بدا واضحا نحو مادة التاريخ . لقد كان دائم التطلع كما يقول : (لكى لا يكون كلاسيكيا بل مؤرخا)^(٣) . مرة واحدة تلك التى فكر فيها أن يصبح شاعرا ، ولقد كان تريفلان ينظم الشعر فعلا ، ولكنه لم يفكر قط فى أن يصبح قائد جيش ، أو رجل سياسة ، أو سائق سيارة . لقد كان واثقا من أن مستوى

(١) المرجع السابق : ص ١٣

(٢) المرجع السابق : ص ١٣

(٣) المرجع السابق : ص ٩

تحصيله في اللغة اللاتينية لم يكن راجعا الى ميل خاص أو لقدرة فذة في هذه اللغة ، بقدر ما كان راجعا الى الطرق الجيدة التي كان يتبعها المدرس مع تلاميذه على أن هذا لا يغير الحقيقة ، وهو أن جو المدرسة في (هارو) لم يكن ليشجع على التعمق في دراسة التاريخ ، بل كان معاديا لدراسة المواد الأخرى فيما عدا المواد الكلاسيكية . غير أن (تريفلان) يمثل لنا نموذجا طيبا لهؤلاء الذين يشعرون بميل عميق نحو شيء ما ، ويصرون على المثابرة للوصول لتحقيق أهدافهم على الرغم من الصعوبات العديدة التي يمكن أن تعترض طريقتهم . كذلك تشير قصته بوضوح الى أن ما أثبتته علم النفس الحديث من أن تأثير المنزل والوالدين أقوى من تأثير المدرسة أو المدرس بالنسبة لتكوين الاتجاهات والميول^(١) .

على أن تزويد مكتبة المدرسة بكتب قيمة أتاح (لتريفلان) فرصة لمدامنة قراءاته التاريخية كما يريد . وهناك استمر في تعليم نفسه بنفسه .

الفرصة الثانية ، اعترضت طريقه في السنة الأخيرة من حياته الدراسية في (هارو) ، هناك التقى بمدرسين ملهمين ، وصادف أن كانا يمتازان بميل خاص نحو مادة التاريخ^(٢) ، والى هذين يرجع الفضل في تقدم تريفلان لامتحان الشهادة الثانوية ، وأن يختار التاريخ مادة تخصصه ، كما أتاح له فرصة ليقرا التاريخ الحديث الذي جذبه للتعلم والتوفر على دراسته .

بدأت المرحلة الثالثة من مراحل تعلمه لمادة التاريخ في (كمبردج) هناك وجد البيئة الجامعية مهيأة لمتابعة دراساته ، ولتطور ميوله واتجاهاته ، فلم يكن قادرا على أن يستمع الى محاضرات تاريخية ، وأن يدرس بتعمق منهجا منتظما في هذه المادة فحسب ، بل كان يأخذ دورا هاما في مناقشات الجماعة بصورة دائمة . مثل

(١) Fleming, C. M. The Social Psychology of Education and Guide to its Study, London, Routledge & Kegan Paul Ltd. 1944

أنظر الفصل الثامن من المرجع المذكور ، لاسيا صفحات ٤٢ - ٤٣

(٢) تريفلان - الترجمة بقله - المرجع المذكور ص ١٠١ ، هذان المدرسان هارورث سمرقيل

(Robert Somervell) ، جورج تاونسند (George Townsend) .

هذا الجو الطليق فتح أمامه آفاقا جديدة شجعت على أن يبدي رأيه بحرية ، وأن يستمع الى ملاحظات نقدية وجهته في طريقه المرسوم ، وهناك أيضا قابل أستاذين في التاريخ أحدهما (سيلى Seeley^(١)) ، وثانيهما (آكتون Acton^(٢)) أما الأخير فقد ترك أثرا واضحا في كتابات (تريفيان) ، في حين أن الأول كان تأثيره عليه ايجابيا وسليا في آن واحد . ويمكن فهم التأثير السلبي لو تذكرنا ، أن الاتجاه العام حوالى نهاية القرن التاسع عشر^(٣) ، كان نحو تطبيق القواعد العلمية على كتابة التاريخ . ولهذا لم يتورع (سيلى) عن وصف المؤرخين المقربين الى قلب (تريفيان) - ماكولى وكارليل - بأنها مدعين وليسا بمؤرخين - وفي نفس الوقت ، كان يؤكد أن التاريخ علم ليست له علاقة بالادب^(٤) . أما عن التأثير الايجابى ، فلقد ظهر في تغير اتجاه (تريفيان) نحو كتابة التاريخ ، لقد تحقق من أن المؤرخ لابد أن يعتمد على الحقائق عندما يبنى قصته .

وفي نفس الوقت ظل يؤكد أن التاريخ فن من الفنون ، وليس كما يقول (سيلى) انه مجرد علم من العلوم . فما يتصف به رجل العلم من حياد جاف لا محل له بل لا يمكن أن يحتل في مقام المؤرخ المعنى بشئون النفوس الحساسة ومن كان فاقد الانفعال والحماس فقلما يؤمن بانفعالات غيره ، ثم هو لا يمكنه

(١) جون سيلى (John Seeley) سنة ١٨٣٤ - ١٨٩٥ ، مؤرخ انجليزي كان يرى أن البحث التاريخي لا بد وأن يقتصر على ميدان السياسة ولا بد من التركيز على الأوراق الرسمية لاستنفاء المعلومات التاريخية .

(٢) لورد آكتون (Lord Acton) سنة ١٨٣٤ - ١٩٠٢ ، ولد ونشأ وتعلم في القارة الأوروبية ، ثم أصبح أستاذاً للتاريخ الحديث بجامعة كمبرج في أواخر حياته . يرى أن يهيض المورخ إلى أبعد مدى بشئون السياسة ، وأن يعنى بمركات الأفكار فهى علة الحوادث العامة - أنظر هرنشو (F. J. G. Hearnshaw) ترجمة عبد الحميد العبادى ، علم التاريخ - لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٤ - الطبعة الثانية ص : ٩٣

(٣) تريفيان - الترجمة الثانية - المرجع المذكور ، الفصل الأول .

(٤) تريفيان - الترجمة الثانية - المرجع المذكور ، ص : ١٧

أن يدرك هذه الانفعالات أبدا^(١) ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مشكلة تريفلين أن يؤسس العلاقة بين التاريخ والعلوم ، وبينه وبين الأدب .

ولقد نجح في حل هذه المشكلة الى درجة أن خلق وراءه مدرسة من الكتاب يحذون حذوه في أسلوبه في الكتابة^(٢) ، أى أن يعتمدوا على الحقائق المجردة ويرزوها في أسلوب أدبي .

٧ - المستوى الاجتماعى - الاقتصادى :

لاشك أن مستوى المعيشة الذى تمتع به (تريفلين) فى منزله- منذ نشأته الأولى قد أتاح له الوقت والمال والفرصة لمتابعة ميوله .

والواقع أنه استطاع أن يزور مع ذويه المناطق الأوروبية ذات القيمة التاريخية . وهناك استطاع أن يستوحى الالهام ليكتب الكثير من كنهه ، فعندما ذهب الى فرنسا مثلا أحس بسرور طاع عندما شاهد عن كنب مسرح الثورة الفرنسية .

والفضل فى هذا يرجع الى كتاب « تاريخ الثورة الفرنسية تأليف كارليل » فأصبح مرشدا أميناً (تريفلين) فى تجواله ، كما يرجع أيضا الى والده الذى كان يقوم منه مقام الدليل .

أما فى إيطاليا ، فلقد عثر على مصادر تاريخية عديدة أفادته فى اخراج كنهه التاريخية فيما بعد . هذه الزيارات ساعدته على تغذية خياله وجعله ينبض بالحياة وهكذا استطاع أن يعيش مع هؤلاء الذين عاشوا فى الماضى ويتحدث اليهم .

وكما أعطى صورة يوضح بها مدى تأثره بآثار الماضى الغابرة بقوله :
« ان مجرد النظر الى قلعة مهدمة كان يفعل بنفسى ما تفعله الفكرة الملحة والعاطفة الجياشة التى تحتل كيانى^(٣) » .

(١) هرنشو - المرجع المذكور - ص : ٣

(٢) تريفلين - الترجمة الذاتية - المرجع المذكور ص : ١٧

(٣) تريفلين - المرجع السابق ص : ٢٠

٨ - انتاجه :

لا بد لنا من استعراض انتاج (تريقليان) في التاريخ حتى بلوغه الثالثة والعشرين ، لأن مثل هذا العرض يتيح لنا أن تبين كيف أثرت ميوله في انتاجه عندما بلغ العشرين من عمره^(١) سنة ١٨٩٦ .

كان أحد خمسة استطاعوا أن ينالوا مرتبة الشرف الأولى في التاريخ في درجة الليسانس ، ووصل الى هذه المرتبة على الرغم من اعتلال صحته التي أنهكها بالانكباب على الدرس والمطالعة الدائمة الدائبة . وبعد عامين من تخرجه ، أي في سنة ١٨٩٨ ولما يتجاوز ربيع الثاني والعشرين^(٢) نراه يضع رسالته التي صار بها زميلا بجامعة كمبردج في التاريخ الوسيط . هذا على الرغم من حرصه على أن يكون ميدانه هو التاريخ الحديث ، الأمر الذي يلقي ضوءا على تشعب ميوله وتعدد آفاق معلوماته في هذا الميدان .

وقد جذب كتابه هذا (انجلترا في عصر^(٣) « ويكلف ») اهتمام الرأي العام لمدى نصف قرن من الزمان^(٤) ، ثم نرى بعد ذلك أن ميله للتاريخ الحديث يتغلب عليه فيلفته الى التوفر على التأليف فيه ، حتى أن أحد الناشرين^(٥) قد تولى نشر ١٦ ستة عشر كتابا بقلبه في هذا الميدان .

ثانيا - (جون ستيوارت مل) (٢٠ مايو سنة ١٨٠٦ - ٨ مايو ١٨٧٣) :

تعطينا قصة (مل) صورة تخالف صورة (تريقليان) ، كما تبين بوضوح كيف أن القدرة العقلية العامة تسير جنبا الى جنب مع تطور الميل نحو التاريخ ، كما يظهر لنا تأثير المدرس المخلص في تكييف اتجاهات تلميذه العلمية وما للتلميذ المجدد من أثر في مستوى تحصيله الدراسي . فما هي العوامل التي أثرت في تطوير ميول (مل) وانتاجه !؟

(١) تريقليان - المرجع السابق ص : ٢

(٢) المرجع السابق - ص : ٢٠

(٣) England in the Age of Wycliffe

(٤) تريقليان - المرجع السابق ص : ٢٠

(٥) الناشر هو لونجمان Longmans - أنظر المرجع السابق : ص ٢٤

١ - مستوى القدرة العقلية العامة :

قدر مستوى ذكاء (مل) بنحو ٢٠٠° حتى بلوغه سن السابعة عشرة ثم ينسبه ١٧٠° بعد وصوله هذه السن ، أما متوسط نسبة القدرة العقلية العامة المقدرة على أساس اتاجه فهي ١٩٠°^(١).

٢ - الوراثة الاجتماعية :

كان جد (مل) لأبيه صانع أحذية ، ووالده هو (جيمس ستيوارت مل James Stuart Mill) الفيلسوف النفعي ، الذي وضع تاريخاً للهند الى جانب كتاباته الفلسفية الأخرى^(٢) ، وقد حرص الوالد على القيام بالعناية بتربية ابنه بنفسه .

والواقع أنه يمكن أن نعتبر أن من أهم العوامل التي أثرت في تربية (مل) ارتباطه بأبيه ، ذلك الذي اشتهر بالجد والاجتهاد مع الحزم والصلابة .

٣ - تربيته :

(١) قراءاته :

حتى بلغ الرابعة عشرة من عمره ظل (مل) يتلقى تعليمه بالمنزل ، وقد بدأ يتعلم الاغريقية في الثالثة من عمره ، ومنذ الثالثة حتى التاسعة ، استطاع أن يقرأ بتوجيه والده ، كتباً تاريخية لا تحصى ، هذا الى جانب قراءاته في النواحي الثقافية الأخرى كالفلسفة . فمثلاً قرأ أفلاطون وهو في السابعة^(٣) ، وكان منهجه التاريخي غنياً منذ البداية ، فعلى الرغم من أن هدف والده كان ينحصر في تزويده منذ بلوغه الثالثة من العمر بالمراجع الكلاسيكية ، تلك التي تحكى قصة صراع الانسان من أجل التغلب على الصعوبات العديدة ، والظروف غير العادية ، فإن كتبه الشائقة كانت تحكى سير الرجال العاملين من أبطال التاريخ ،

(١) Cox « كوكس » ، المرجع المذكور صفحات ٧٠٧ - ٧١١ ، صفحات ١٥٥ - ١٦٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٧

(٣) المرجع السابق ص : ٢٠٧

كما عززت قراءته بقدر كبير من المادة التاريخية التي تفسر النظريات التي تتصل بالحضارة والحكومة وبالأخلاق^(١) .

لقد أخذ الطفل يقرأ عن الحكومة الانجليزية وحركة الاصلاح الديني وغيرها من الموضوعات ذات الطابع الجدوى ، ومنذ الثامنة حتى الثانية عشرة ، استمر التاريخ ولا سيما القديم منه أحب مادة اليه^(٢) ، ولهذا فانه الى جانب قراءته لتاريخ الرومان والاغريق ، فانه أكب على قراءة تاريخ العالم القديم ، كما درس نظام الحكم الرومانى وقوانينه ومشكلاته التشريعية ، وبين الثالثة عشرة والرابعة عشرة عكف على دراسة كاملة للتاريخ الاقتصادى - السياسى قراءة واعية ، فى حين أنه أمضى السادسة عشرة والسابعة عشرة فى قراءة الفلسفة والتاريخ وعلم النفس والأساليب الأدبية^(٣) .

(ب) طرق دراسته :

١ - على الرغم من أن طريقة التعلم التي كانت سائدة فى زمنه كانت مجرد حشد الحافظة بالمعلومات ، فان طريقة (مل) قد شذت عن هذه ، اذ صار الفهم والهضم مع الحفظ^(٤) جنبا الى جنب .

٢ - وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره ، درس علم المنطق ، الأمر الذى مكنه من اكتشاف أصول المعانى للكلمات ، ويمكن أن نستنتج من هذا أن نظرية انتقال أثر التدريب قد طبقت هنا بمعناها الحديث .

وقد كان يظن حينذاك ، أن مثل هذه الطريقة لو استخدمت استخداما صحيحا لاستطاعت أن تكون مفكرين جادين^(٥) .

(١) (مل) الترجمة انذاتية - المرجع المذكور ص ٧

(٢) (مل) المرجع السابق ص ١٠

(٣) (كوكس) Cox : المرجع المذكور ص ١٥٨

(٤) كوكس : المرجع السابق ص ٧٠٨

(٥) (مل) الترجمة انذاتية . المرجع المذكور ص ١٦

٣ - عند ما بلغ الثالثة من عمره ، درج على أخذ مذكرات يلخص فيها بأسلوبه وبكلماته العدد الوفير من الكتب التاريخية التي قرأها^(١).

٤ - في حين أن مناقشته الدائمة مع والده ، ومع أصدقاء والده - وكانوا من أكبر مفكرى القرن التاسع عشر - كانت تتم على قدم المساواة معهم على الرغم من فارق السن بينه وبينهم .

وفي أثناء نزهته اليومية الصباحية ، درج على أن يقدم لأبيه تقريرا وافيا عما درسه في اليوم السابق . هذا التقرير كان يدبج بأسلوب (مل) الخاص .

٥ - كما كان يشجع الوالد طفله على أن يكتب تمرينات درج أن يسيها (كتابات تاريخية)^(٢) . وقد شاء والده أن يترك طفله حرا يكتب هذه كما يحلو له ، ذلك لأن الوالد لم يحاول يوما أن يتفحص ما كتبه ، مثل هذه الكتابات - كما يقول هو نفسه - برهان ساطع على ميله القوي نحو التاريخ .

٦ - كما أعطيت له أشعار شكسبير ليدرستها ، وكان يلذ بقراءة المسرحيات التاريخية .

٧ - وكان يطلب إليه أن ينقد كل ما قرأه ، ويشجع على تكوين رأي مستقل ، ومهما يكن من هدف وضعه الأب نصب عينيه لتحقيقه بالنسبة لابنه ، فإنه لم يجد سيلا على أن يرغمه على القراءة أو التفكير . لقد كان (مل) الصغير دائم التعطش الى المعرفة .

٨ - ولقد تعلم منذ البداية البحث عن الحقيقة وألا يقبل أقوال المؤرخين وآراءهم دون الاقتناع بصحتها ، وهكذا كانت القاعدة التي يركز عليها هي تجنب التحيز ، حتى على حساب الشعور الوطنى^(٣) ، بمعنى آخر أنه عندما كان

(١) أنظر المرجع السابق ، مثبت به أسماء هذه الكتب - ص ٦

(٢) المرجع السابق : ص ١١

(٣) ترجمه مل اندازة . المرجع المذكور - أنظر أنجواه جبال حرب الاستقلال الأمريكية

(مل) صغيرا اتبعت معه طرق التعلم والبحث التي يصير مؤرخو اليوم على تعليمها للمتخصصين في التاريخ .

٩ - اعتمد على المصادر الأولى والثانية في قراءته وكتاباتة التاريخية .

الانتاج التاريخي :

(ا) عندما بلغ الخامسة استطاع (مل) أن يصمد لمناقشة دارت بينه وبين (ليدى سبنر Lady Spencer) عن المقارنة بين مميزات (مالبره Malborough) و (ولنجتون Wellington) وكانت المناقشة طويلة وجدية وتقدر نسبة ذكاء (مل) لصموده في هذا الموقف بـ ٢٠٠ درجة^(١) .

(ب) وعندما بلغ منتصف السابعة كتب تاريخ روما^(٢) . وقد وصف بأنه اتاج يدعو للدهشة من طفل صغير جدا^(٣) .

(ج) وقبل أن يصل السابعة من عمره أظهر ميلا وقدرة خارقة على تناول المادة التاريخية بذكاء وفطنة نادرتين ، وذلك باعداد الملخصات والملاحظات النقدية . مثل هذا التحصيل قدر على ضوئه متوسط ذكاء مل بـ + ٢٠٠ درجة^(٤) .

(د) وعندما بلغ الحادية عشر ، عهد اليه والده بتصحيح كتابه « تاريخ الهند » قبل طبعه^(٥) ، مما يدل على وثوقه من مقدرته وكفاءته .

(هـ) وعندما ناهز الثانية عشرة من عمره كتب « تاريخ حكومة روما » نزولا على رغبة شخصية . قدر هذا الانتاج بأنه يناسب مستوى طالب في المرحلة الجامعية الأولى ، ومما يزيدنا اعجابا بهذا العمل هو أن

(١) (كوكس) Cox . المرجع المذكور ص : ١٥٦

(٢) (مل) - الترجمة الثانية - المرجع المذكور ص : ١١

(٣) كوكس : المرجع المذكور ص : ٢٠٩

(٤) المرجع السابق ص : ١٥٦

(٥) كوكس : المرجع السابق ص ٢٠٩

(مل) استمد مادته من مصادر لاتينية ، والكتاب يتضمن مناقشة النقاط الدستورية ، ويتضمن تحقيقا للقوانين الزراعية ودفاعا عن الحزب الديمقراطي الروماني (١) .

(و) وبين التاسعة والثالثة عشر حاول (مل) كتابة ملحمة استمد الهامها من ملحمة (هومر) بقلم (الكسندر بوب Alexander Pope) . ولقد نجح (مل) في اتمام كتاب كان اكمالا لللياذة ، الأمر الذي يدل بوضوح على اتناجه الغزير في هذا الميدان .

القرائن الدالة على قدرات فذة وميل متصل لمادة التاريخ

قد يساعد كثيرا على تقدير مظاهر القدرات والميول المختلفة لدى (مل) ، اذا ما حللنا أول فقرة في كتابه : تاريخ روما ذلك الذي كُتب ، كما نوهنا سابقا وهو في منتصف السابعة من عمره ، وتجرى الفقرة على النحو الآتي (٢) :

أولا — حكومة ألبان Alban — يقول دايسيوس الهالكارناسي Dionysius of Halicarnassus

الغزو الروماني لاطاليا :

نحن لا نعرف شيئا عن تاريخ روما حتى الغزو الصقلي ، فقبل هذا الوقت لم تتح المدينة للغزاة أية فرصة تفتح أمامهم موجاما ، وبعد أن رد الصقليون على أعقابهم ، قام ملوك (أيبيريا Iberia) بحكم روما لسنوات عديدة ، وحدث أن جاء (آينياس Aeneas) بن (فينوس Venus) و (أنيكسيس Anchises) الى ايطاليا في عهد (لاتينوس Latinus) وأسس مملكة هناك تدعى ألبانيا Albania ثم تولى الحكم بعد (لاتينوس) ، واشترك في الحروب الايطالية . غير أن شعب (الروتولي Rutuli) ذلك الشعب الذي كان يعيش قرب البحر وتمتد أملاكه على الخط من (نوميسيوس Numicius) حتى (لافينيوم Lavinium) وقف ضده

(١) كوكس : المرجع السابق ص ١٥٧

(٢) كوكس : المرجع السابق ص ٢٩٥

غير أن ملكهم (تورنوس Turnus) قد هزم وقتل بيد (آينياس) ، ذلك الذى قتل بعده بوقت قصير واستمرت الحرب ولاسيما ضد شعب (الروتولى) حتى عهد (روميلوس Romulus) ، أول ملك من ملوك روما ، ذلك الذى قام بتشييد روما .

ويمكن ابداء الملاحظات الآتية على هذه الفقرة :

١ - ادراك (مل) للأهمية التى تلعبها الوثائق التاريخية فى كتابة التاريخ ، ولقد حرص على ذكر المصدر الذى استقى منه معلوماته التاريخية وهو (دايونيس الهالكارناسى) ، كذلك يتضح أن (مل) فى كتابه الأول لم يستق معلوماته من الكتب المدرسية بل اعتمد أساسا على المصادر الأصلية .

٢ - وأن الكلمات مثل : أولا ، وقبل ، وبعد ، وسنوات عديدة وغيرها تشير الى ادراك (مل) لأهمية عامل الزمن فى فهم وعرض التاريخ ، فهذا المظهر يعطى للتاريخ احدى صفاته المميزة ألا وهى التعاقب الزمنى .

٣ - ثم أن طريقة تنظيمه للحوادث بشكل يجعل الحادثة الأولى تلى الحادثة الثانية تشير الى اهتمام (مل) لا بالحرص على التابع التاريخى للأحداث فحسب بل على ادراكه أهمية العلاقات السببية فى بناء القصة التاريخية أيضا ، أى أن كل حادثة تالية ترتب على حادثة سابقة . ويعتبر هذا التنظيم أحد خصائص الكتابة التاريخية .

٤ - كذلك يلاحظ اهتمام (مل) بالدور الذى يلعبه المكان فى عرض المادة التاريخية وإبرازه كسرح يلعب عليه الشخصيات التاريخية دورهم ، وبالتالي ادراك أهمية العلاقة بين الزمان والمكان ، ، وبين البيئة الجغرافية والأحداث التاريخية . فشعوب الشواطىء مثلا قد عرفت عادة بوقوفها ضد الغزاة تدافع عن حرمتها .

٥ - والفقرة السابقة تشير بوضوح الى ادراك (مل) للدور الذى تلعبه الوحدة الاجتماعية (Social Unit) فى تكوين القصة التاريخية . فمثلا هناك

شعب (الروتولوى) ذلك الشعب الذى يقطن قرب شاطىء البحر يعتبر وحدة اجتماعية أبرزه (مل) ابرازا قويا ، كما حرص على وصف العلاقات الاجتماعية المختلفة التى تربط هذا الشعب بملوك روما المختلفين .

٦ - وفى نفس الوقت أدرك (مل) أهمية الدور الذى يلعبه الرجل العظيم أو البطل الفذ فى الأحداث التاريخية وان أسماء الأعلام (تورنوس وآينياس وروميلوس) مثلا تبرهن على تقديره لهذا العامل الهام فى الأحداث التاريخية .

٧ - كذلك نرى بوضوح اهتمام (مل) بذكر الأحداث البارزة فى كتابة القصة التاريخية ، فهناك مثلا : غزو الصقليين لايطاليا ، وهناك تأسيس (روميلوس) لروما ، وهناك الحروب المختلفة ، كل هذا وغيره يؤكد فهم (مل) للدور الذى تلعبه الحوادث الحاسمة فى تاريخ شعب من الشعوب ، وكثير من المؤرخين يؤكد ما لهذه الحوادث من أثر كبير فى تغيير دفة التاريخ .

٨ - حرص (مل) على أن يبرز ويركز فى فقرة واحدة أفكارا عديدة ، مما يدل على ادراكه لضرورة اختيار الحقائق الأكثر أهمية ، واغفال الحقائق الأقل أهمية . كما حاول الانعتاق من الأسلوب الأدبى عند عرضه للمادة التاريخية ، الأمر الذى يدل على تأثره بالنزعة الموضوعية العلمية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر .

٩ - هناك من الدلائل ما يشير الى فهم (مل) لأهمية بداية ونهاية عهد من العهود ، الأمر الذى يشير بوضوح الى فهمه لأهمية فكرة الاستمرار والتطور الى جانب ادراكه لفكرة السبب والنتيجة .

١٠ - لقد قدرت المصادر ^(١) نسبة مستوى القدرة العقلية العامة (ملل) بـ ٢٠٠ درجة ، وذلك على أساس ادراكه لمعانى الاصطلاحات التاريخية مثل : حكومة ، غزو ، هزيمة ، طرد ، حكم ، الوقوف ضد ، اجتياح ، وكلها قد

(١) كوكس : Cox - المرجع المذكور ص ٢٠٠

استخدمها استخداما واعيا . كذلك تتضح لنا دقته في عرض مادته التاريخية
مثلا :

The country had not been entered by any foreign invader.

(لم تتح المدينة للغزاة أية فرصة تفتح أمامهم مولجاما)

(أسس ملكا) established a kingdom.

(استغرق الحروب) engaged in wars.

(طوى الحكومة وجعلها في ركابه) succeeded in the government,

ولقد قدر العمر العقلي (مل) على أساس استخدام هذه الاصطلاحات
والعبارات التاريخية بمستوى ذكاء مراهق فاق الخامسة عشرة من عمره (١) ، بينما
قدرته بعض المصادر الأخرى بمستوى ذكاء صبي فاق الثانية عشرة من عمره (٢).
هذا التقريران المضطربان بين الثانية عشرة والسادسة عشرة يجعلنا
لا نستبعد أن يصل تلاميذ المرحلة الاعدادية والمرحلة الثانوية الى نفس المستوى
أو ما يقرب منه ، اذا ما أحيطوا بمثل الظروف التي أحيط بها (مل) منذ طفولته
الباكرة ، معنى هذا أنه لا بد من أن نضع في حسابنا دائما أثر العوامل المختلفة
التي تعوق تلميذ هاتين المرحلتين عن الوصول الى المستوى الذي وصل اليه
(مل) وهو لم يعد طور الطفولة المبكرة .

ثالثا - المؤرخ ادوار جيبون (١٧٢٧ - ١٧٩٤) Edward Gibbon :

يرجع اختياري للمؤرخ جيبون الى أنه يبين صورة مختلفة عن هاتين
الصورتين اللتين عرضتا لكل من (تريفيان ومل) . فعلى عكسهما لم يظهر
جيبون ميلا نحو التاريخ أو حماسا لحفظه الا عندما بلغ العاشرة من عمره ، ربما
كان يرجع هذا الى ظروفه المنزلية ، والى اعتلال صحته ، كما لم يحظ باهتمام
والده بتربيته كما حظى زميلاه .

(١) Cattell, Roymond B. Your Mind and Mine, London, George G. Harrap
& Co. Ltd. 1934 - p. 40.

(٢) كوكس : المرجع المذكور ص ١٥٦

تقصى تطور ميل جيبون نحو التاريخ

١ - عندما بالغ التاسعة ، أدخل مدرسة خاصة Public school (١) تلقى فيها أول ما تلقى دراسة أشعار (هومر ترجمة بوب) (٢) ، ومنها كانت انفعالاته الأولى في ناحيتى الأدب والتاريخ معا . ولعل انطباعات الأحداث التاريخية التى تضمنتها أشعار هومر مثل حروب طروادة وما دار بين أبطالها من مشاحنات ومعارك تركت في ذهن الغلام أثرا موشى بأمشاج من الحقيقة والخيال الأمر الذى حشد نفسه بشتى الانفعالات التى يمتزج فيها الخوف بالحب بالشفقة (٣) .

٢ - وفى الثانية عشرة ، كان قد تمكن من استيعاب قدر كبير من الشعر الانجليزى والقصص ذات الطابع التاريخى والمغامرات والرحلات (٤) ، وان لم تتح له ظروفه أن يسمو الى قراءة المصادر الأصلية على النحو الذى تمكن منه (مل) وذلك لجهله باللغة الاغريقية ، وعلى الرغم من هذا كله نرى جيبون يعتبر السنة التى أمضاها فى المدرسة كانت ذات أثر أحسه بكل قواه فى تقدمه الفكرى لقد ظل يلتهم كل ما تقع يده عليه من تاريخ قديم أو حديث غربى أم شرقى ، ويجد فى قراءته لذة (٥) . وفى الثالثة عشرة استغرقه الميل للتاريخ والانكباب على أحداثه استغراقا كاملا (٦) .

٣ - وفى الفترة التى تقع بين سن الرابعة عشرة والخامسة عشرة ، وكان فيها فريسة مرض كان يحس بمرارة حرمانه من البيئة الثقافية التى تألفها روحه . واستطاع بتأملاته أن ينفذ الى العمود السحيقة ويستنتق أحداثها ، حتى تمكن

(١) (المدارس العامة) Public Schools : هى مدارس خاصة ، يلتحق بها التلميذ الانجليزى ، نظير دفع رسوم باهظة ، لا تحتملها ميزانية الرجل العادى .

(٢) Alexander Pope

(٣) جيبون (Gibbon) : المرجع المذكور - الترجمة الذاتية ص ٢٧

(٤) المرجع السابق : صفحات ٢٧ - ٢٩

(٥) المرجع السابق : صفحات ٣٤ - ٣٥

(٦) كوكس (Cox) : المرجع المذكور ص ٥٢٨

من أن يجلو مرائيها بصورة تكاد تحس . وقد لعبت الصدفة في اتجاهه هذا دورا يمكن تلخيصه في عثوره على كتاب يتناول العصر البيزنطى ، وحياة النبى العربى وتاريخ الجزيرة العربية ، فى مكتبة أحد أصدقاء والده ، وقد استطاع قبل أن يتجاوز السادسة عشرة أن يلم الماما كاملا بما كتب عن تاريخ العرب والفرس والمغول والترك .

ونرى أن انطباع نفسه بتاريخ الشرق جعله يترك بصمات منه على اتجاhe فى المستقبل .

٤ - ومما يؤسف عليه أن الظروف لم تيسر له ما يتمكن به من تنظيم معلوماته ، فهو مثلا عندما التحق بجامعة أكسفورد ، لم يجد البيئة الملائمة التى تساعده على تحقيق هذا الغرض . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإنه لو كان قد صادف المدرس الذى يتلقاه بفهم لقدراته الذهنية ولمدى استعدادده الصالح للمعرفة ، مثل ما حدث مع تريفلان لكان قد اتجه اتجاها أكثر توفيقا ، وكان لأثر فقر البيئة الجامعية من الوثائق التى تعينه على استكمال دراسته وتنظيمها ، انصرافه عن دراسة اللغة العربية التى كان يصبو الى الالمام بها ومن عدم تمكنه من التقدم فى دراسة تاريخ الشرق .

وعلى الرغم من الظروف السيئة التى أحاطت به من كل جانب والتى جعلته يرتضى فى أحضان الكسل لمدة ثلاثة أعوام لم يفقد حرارة اهتمامه بالتاريخ ومضيه فى دراسته على طريقته الخاصة تلك التى لا تعترف بنظام ولا تتخذ أسلوبا معيناً والتى تتجه الى دراسة التاريخ الأجنبى الذى لا يتصل بوطنه^(١) .

مظاهر ميول وقدرات جيون التاريخية

١ - فى الخامسة عشرة من عمره ، وعلى الرغم من افتقاره للأسس التربوية الصحيحة وعدم تعوده على التفكير المنطقى المنظم ، وافتقاره الى الأسلوب

(١) جيون - الترجمة الذاتية المرجع المذكور ص ٤٧

الصحيح الذي يخلو من الأخطاء الهجائية والنحوية وضع كتاب (عصر سيزوستريس The Age of Sesostris ، ويرمى الى تقصى حكم هذا الملك في آسيا ، بيد أنه لم يتم هذا الكتاب (١) .

٢ - وفي الحادية والعشرين ، كان جيون قد أتم كتابه الأول ، وهو عبارة عن مقال وضعه باللغة الفرنسية عنوانه (دراسات في الأدب) .

وعلى الرغم من أن أسلوبها كان يوصف بأنه أسلوب عادى ، الا أنها نادى بضرورة اعطاء التاريخ والسياسة مكانهما بين العلوم الأولى . وكانت دعوته أقوى من أية دعوى تماثلها في عصره (٢) .

٣ - وعندما كان يتم تعليمه بسويسرا ، وعلى الرغم من انهماكه في دراسة بعيدة الصلة عن التاريخ الا أننا نلاحظ استمرار ميله لقرائته ولاسيما ما يتصل منها بالمعصور الحديثة .

٤ - ولقد كان جيون أول مؤرخ في بريطانيا ، يحرر نفسه من الطريقة التي أدخلها موتسكيو ، تلك التي كانت تعتمد في تفسيرها للحوادث التاريخية على العوامل البشرية ، وكان جيون يحس تماما بأهمية العوامل الثقافية لزمان ومكان معينين الى جانب تأثير المناخ في تطوير الأحداث التاريخية .

٥ - ولقد اتاحت له دراسة المنطق وأساليب التفكير المنظم ، الأمر الذي وضع أثره في اتسامه بروح النقد الذي كان يقتصر اليها قبل هذه الدراسة ، فتحول من مجرد قارئ عادى الى قارئ يتذوق وينقد ويستوعب على أسس منطقية سليمة سديدة .

٦ - وكان من أثر هذه الدراسة وثمرتها أن توجه الى البحث عن المصادر الأصلية ، كما علمته كيف يستعين بالخرائط وبالقوائم الزمنية ، وجعلها اطارا

(١) المرجع السابق ص ٤٨

(٢) Young, G. M. Gibbon, Rupert Hart - Davis, London 1932 Edition (٢)
1948 p. 80 (ص ٨٠)

ربط الزمان بالمكان . وكان يعتقد أن هذه الطريقة لا يمكن بحال أن يستغنى عنها في دراسة التاريخ . وقد تفرد جيون بذكرة ذات قدرة خاصة على استيعاب التواريخ الزمنية (الأيام) والتوزيع الجغرافي والتاريخي للأحداث^(١) .

٧ - أدرك جيون أهمية المصادر التاريخية من أجل البحث عن الحقيقة - كما استطاع أن يقدر تماما قيمة الأدلة التي تستقى من مصادر معاصرة موثوق في عدم تحيزها - ولقد تبين أن الكثير من هذه البراهين ، يأتي من المصادر المعاصرة التي لم يكن دافعها للكتابة تحقيق غرض ما^(٢) .

ومن أجل أن نبرهن على صدق هذا القول ، نسوق حادثة اعتناق جيون للمذهب الكاثوليكي ، وهو مازال طالبا في سن السادسة عشرة بجامعة أكسفورد وذلك بعد أن اقتنع بما كتبه الدكتور (ميدلتون Middleton) ، الأمر الذي يشير بوضوح الى معنى تقديره للحقائق التاريخية والأسانيد المتبعة ، وان صدرت من يخالف عقيدته ، على أنه اذا كانت هذه الحادثة تكشف عن تحسه وتمسكه برأيه وبمجاهرته به ، على الرغم من كل ما يكتنفه من صعوبات ، الا أنها كانت تشير أيضا الى أنه لم يكن بعد ناضجا للنضوج الفكري المطلوب ، ذلك الذي يحتم عليه أن يرى المسألة من أوجهها جميعا ، والا بد من أن يستمع الرأي المعارض قبل أن يجنح لرأى ما^(٣) بدليل ارتداده الى مذهبه الأصلي .

٨ - وهو يشبه (تريفلان) في مدى تأثره بالزيارات التاريخية . ان العمل الذي خلد اسمه كان وليد الهام زيارته (للكابيتول Capitol) بروما سنة ١٧٦٤^(٤) هذا الحادث يذكرنا بملاحظة أبقاها (ستانلى هول Stanley Hall)^(٥) .

(١) يونج (Young) المرجع المذكور ص ١٦ ، أيضاً جيون ، الترجمة الثانية ، المرجع المذكور

ص ٣٦

(٢) يونج (Young) ، المرجع المذكور ، ص ١٦

(٣) جيون - الترجمة الذاتية - المرجع المذكور صفحات : ٥٠ - ٥٣

(٤) يونج ، المرجع المذكور ص : ٦٥

(٥) Hall, G. Stanley : Educational Problems, Pedagogy of History, New York and London, D. Appleton & Co. 1911 - Vol. II pp. 279 - 280.

عن تلميذ المرحلة الأولى الذي يصادف وجوده في مكان أثري كروما أو أيثنا ، هناك حيث تحيط به الآثار القديمة من كل جانب ، فلا بد من أن تتجذب ميوله نحو الماضي ، ونحو دراسة التاريخ .

هذا على الرغم من محاولة مدرسية الذين يعتقدون المبدأ القائل بأن أفضل طريقة لتدريس التاريخ هي العودة بالصغار للتاريخ المعاصر ، لكيلا يتوهموا أن ما مضى لا يمكن أن يعود ولن نستطيع أن نحظى بخير منه ، الأمر الذي يكون له رد فعل ينطوي على شعور بالخيبة ويوحى باليأس .

الخلاصة : ان دراسة جيون بينت كيف أن الميل نحو التاريخ يمكن أن يستمر ، على الرغم من الظروف غير المواتية لنمو مثل هذا الميل ، بل من الممكن خلقه وتمهده بالرعاية المستمرة ، ذلك أنه على الرغم من أن جيون لم يرزق الوالد المتحمس لدفعه ولتربيته كما كان الحال مع (مل) أو يصادف المدرس الملهم كما كان الحال مع (تريفلان) فلقد استمر ميله في الاتجاه الصحيح . على أن تأخر ظهور اتجاhe يدل دلالة واضحة على ما للظروف من تأثير لا يمكن اغفاله ، الأمر الذي كان ينحصر عن مضاعفات أفدح في شخصية غير شخصية جيون الذي امتاز بقدرة علم التعلم^(١) ، وبقدرة عقلية ممتازة ويأخذ نفسه بمعادن طيبة لاستيعاب ما قرأه .

ملاحظات ختامية

يجب أن نتذكر ما سبق أن لفتنا إليه الأنظار من أن النتائج التي يمكن استخلاصها من التحليل السابق للحالات الثلاث هي نتائج لم تصل بعد الى حد الثقة المطلقة . أي لا بد من أن ننظر الى هذه النتائج بشيء غير قليل من التحفظ ، لا سيما اذا ما تذكرنا ما تعانیه طريقة السير والتراجم من ضعف أشرنا اليه في صدر هذا البحث ، كذلك لا بد من أن نأخذ في اعتبارنا الظروف التي أحيط بها من طبقنا عليهم طريقة (دراسة الحالات) لتحليل ميولهم نحو التاريخ .

(١) قدرت (كوكس) . المرجع المذكور ، ص ٧٨١ - نسبة القدرة العقلية العامة لجيون ب ١٤٥° عند ما كان صغيراً حتى بلغ السابعة عشرة . ثم ب ١٥٥° بعد هذه السن .

هذه النتائج هي :

إذا ما رجعنا الى المشكلة الرئيسية التي أثارناها في صدر هذا البحث وهي : هل تنفق مع^(١) راووزى على تقسيمه لعملية نمو الميل نحو التاريخ الى مرحلتين؟؟ مرحلة السرد ومرحلة الحقائق أو المرحلة العلمية . هذا التقسيم فيه قدر كبير من التعسف ، ذلك لأن عملية نمو الميول ، شأنها كشأن أية عملية أخرى تتصل بتطور أو بنمو شيء ما لا يمكن أن تعسد في تحديدها بأن نجعل بين مراحلها فواصل متكلفة .

فعلية النمو فيها استمرار . هذا الاعتراض لا يمنع على الاطلاق اعترافنا بأن ميول بعض الأفراد نحو التاريخ يمكن أن تبدأ من ميلهم لسامع القصص السردية أو من قراءتهم لكتب شائعة مثل كتاب (آرثر الصغير Little Arthur) .

والمؤرخ تريفلان يمثل هذا الفريق خير تمثيل ، وأن هناك من ينشأ ميله نحو التاريخ من قراءة الحقائق التاريخية قراءة واعية ترمى الى فهم مدلول هذه الحقائق ، وخير من يمثل هذا الفريق (مل) ، على أن الأخير لم يتفرد بهذا الاتجاه (فجون هاقت) John Havet^(٢) ، ذلك المؤرخ الفرنسي ، الذي أضاف الى شهرته كمؤرخ صفة المؤرخ الناقد ، كان يرى في مراحل دراسته قبل الجامعية أن التاريخ مادة مملّة في المدرسة ، ذلك لأنها كانت المادة الوحيدة التي لم تتحد قدراته العقلية ، فلم يطلب اليه أن يعمل فكره فيها أو يقوم بتقصي صحة ما تقوم عليه . الأمر الذي يشير الى أن عزوف (هاقت) عن الاقبال على دراسة التاريخ لا يرجع الى طبيعته ، بل على الطريقة السردية التي كان يدرس بها حينذاك ، وهي نفس الطريقة التي اجتذبت (تريفلان) والتي أتمى عليها (راووزى) ثناء طيباً^(٣) .

من هذا يتضح بجلاء أن عقلية (مل وهاقت) الناقدة كانت في طبيعتها

(١) أنظر ص ١١٧ من هذه المولية .

(٢) Langlois ch. v and Seignobus ch. Introduction to the Study of History
Translated by G. G. Berry, London, Duckworth & Co. New York - Henry Holt
& Co., 1898. p. 12

(٣) A. L. Rowse : The Use of History, Hodder & Stoughton 1947 ص ٤٨

تختلف عن عقلية (تريفيان) ، فالأخير كان طفلا وصيا ، يستغرق في خياله ،
يميل الى الشعر والى تذوق الأدب^(١) ، في حين أن (مل وهافت) اتجه ذهنهما
اتجاهها تحليليا ، والى فحص وتقصى الأدلة والبراهين . غير أنه اذا كان (مل)
قد صادف من يمك بكنتى يديه ويقوده نحو الطريق الصحيح ، فان (هافت)
لم يكن محظوظا مثل (مل) اذ لم تتح له فرصة واحدة لتوجيه ميوله الوجهة
الصحيحة حتى اذا ما التحق بالكلية واذا بهذه الميول تتفتح وتجد الفرصة
لشحذها، وتبلورها حتى تصبح ميلا دائما نحو التاريخ النقدي Critical Histoy .

نستنتج من هذا أيضا ملاحظة أخرى هامة ، هي أن الفروق الفردية تملئ
علينا ضرورة تنوع طرق التعليم ، (فمل) مثلا لم يكن ليستوعب حقائق التاريخ
الا بتفهم معانيها وبتقصي عللها وتائجها الى درجة عبر بها عن اتجاهه فقال :
« وقد رضت نفسى على التفكير فى أى أمر منذ الوهلة الأولى^(٢) » . فى الوقت
الذى أرغم (تريفيان) على أن يعى التواريخ (الأيام) والحقائق عن ظهر قلب
منذ أن كان فى السادسة من عمره . ومن أجل توضيح الفرق بين الطريقتين يجعل
بنا أن تتأمل الفقرتين الآتيتين المقتبستين من التراجم الذاتية لكل من (مل
وتريفيان) يقول الأخير :

اننى قد أجبرت على حفظ التواريخ والأشعار عن ظهر قلب ، كما يجب على
جميع الأطفال أن يحذو حذوى ، هذا فى الوقت الذى لم تزل فيه ذاكرتهم غضة
وقابلة للاستيعاب ، بدلا من أن نعد الى حشدها بالعموميات عن التاريخ وعن
النقد الأدبى ، تلك التى لا يمكن أن تعنى شيئا بالنسبة لعقليتهم القاصرة غير
الناضجة^(٣) .

فى حين أن (مل) يؤكد أنه : (لم يكن يسمح أبى بأن ألقن أو استوعب
شيئا بطريقة آلية^(٤)) .

(١) و(٢) (Cox) : المرجع المذكور ص ١٥٨

(٣) تريفيان ، المرجع المذكور ، النسخة الذاتية ص ٧

(٤) كوكس ، المرجع المذكور ، ص ١٥٨

فاذا كان التذکر يعد عملية هامة في تعلم التاريخ ، فهناك طرق مختلفة للتحفيظ : طريقة حشد الذاكرة بالحقائق والمعلومات دون فهمها ، وطريقة حفظها بعد فهمها ، كما أن هناك الذاكرة اللاشعورية *Unconscious Memory* تلك التي تعنى الحقائق دون بذل مجهود في معاناة حفظها ، أى بطريقة تلقائية كما كان الحال مع جيون ، الذى لم يبذل مجهودا لتذكر الحقائق التاريخية غير أن قراءاته العديدة المتفرقة ، واستمداده لتذكر ما يقرأ من حقائق ، جعله يتصور التعاقب التاريخى للأحداث ، ويرسم في ذهنه الخرائط التاريخية .

كذلك يبين التحليل للبحث السابق بوضوح تشعب ميول هؤلاء المؤرخين المختارين . فكل منهم يميل الى فرع بل الى عصر مختلف من فروع وعصور التاريخ .

(فريشليان) مثلا يظهر اهتماما شديدا بالتاريخ الحربى وتاريخ معارك العصر الحديث ، بينما يميل (مل) الى التاريخ القديم بكل ما فيه من جفاف وغموض فهو يقول :

انه على الرغم مما يوصف به أسلوب هذا الكتاب من جفاف فقد وجدت سرورا طائفا حينما تصفحت أحداث تاريخ العالم القديم ، وكلما أمعنت في قراءته ذخرت رأسى بحقائق مفصلة تتصل بشعوب قلما يعرف الناس عنها شيئا ، لأنها موعلة في القدم . هذا في الوقت الذى لم يجذبنى اليه التاريخ الحديث اللهم الا اذا استثنينا صفحات مبشرة هنا وهناك ، مثل حروب الاستقلال الهولندية ، فلم أعرها الا اتباعها طفيفا ولم يهمنى أن أعرف عنها الشيء الكثير^(١) .

في حين أن جيون كان يميل الى التاريخ الشرقى بكل ما فيه من سحر وثروة وغرابة وجمال .

النتيجة الهامة التى نخرج بها من هذا البحث أنه من العبث أن نعد الى فرض تقسيم للمهود وللنروع التاريخية المختلفة للملائمة كل منها لمجموعة كبيرة

(١) مل : الترجمة الذاتية ، المرجع المذكور ص ١١

من التلاميذ ، في مرحلة من مراحل التعليم المختلفة . يترتب على هذا أن انتاج التلاميذ يتخذ أشكالا عديدة ، فتريليان ، وأمثاله يغمون بالأسلوب الأدبي في كتابة القصة التاريخية ، وهو يتجه اتجاها خاصا نحو التاريخ الحديث ، في حين أن (جيون) اتجه نحو ميدان آخر ووجد فيه (اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية) ما يغذى فكره ويشحذ همته لايخراج الفكرة الى حيز الوجود في كتاب لم تزل له شهرة باقية^(١) ، في حين أن (مل) أصبح الكاتب الناقد السياسي الاجتماعى الاقتصادى في القرن التاسع عشر .

كل هذا يشير الى ضرورة مراعاة مبدأ الفروق الفردية ، ليس في توجيه قدرات التلاميذ فحسب ، بل في ميولهم واتجاهاتهم ، وفي طرق تعلمهم .

كذلك يبين التحليل السابق بوضوح كيف أن الدور الذى تلعبه القدرات العقلية المختلفة باختلاف الأفراد المختلفين . فالتخيل مثلا قد لعب دورا أكبر في تصور (تريليان) للأحداث التاريخية ، في الوقت الذى لم يحتل مكانا هاما في عملية تعلم (مل) لهذه المادة بالذات ، اللهم الا عندما حاول نظم الشعر ، مقلدا للملاحم الاغريقية الخالدة . معنى هذا وجوب اهتمام المدرس باستخدام جميع القدرات العقلية المختلفة في جميع المراحل التعليمية ، الأمر الذى يهدم النظرية التلخيصية من أساسها ، كذلك لا بد من استخدام جميع الوسائل المعينة المشوقة والطرق التربوية المختلفة لنصل الى النتائج المرغوب فيها مع الأفراد المختلفين في المستويات من حيث القدرات والاستعدادات والميول والاتجاهات .

كذلك اتضح من البحث أن من العبث أن تقسم التلاميذ الى مجموعات كبيرة متجانسة طبقا لميولهم وقدراتهم ، ففي الوقت الذى عجز فيه (تريليان) عن متابعة الرياضيات أو الشعور بعيل لها ، فإن هذا العزوف لم يشترك فيه (مل أو جيون) ، فقد أثر عنهما البراعة في هذه المادة بالذات^(٢) ، الأمر الذى يشير

(١) هرنشو - ترجمة عبد الحميد العبادى ، المرجع المذكور ص ٦٤

(٢) هذه النتيجة تتفق مع نتائج أبحاث أخرى كثيرة - أنظر مثلا : Terman, Lewis et la

« الطفل الموهوب » المرجع المذكورة سنة ١٩٤٦ المجلد الرابع ص ٢٠٦

بوضوح الى وجوب ادخال التاريخ في جميع المناهج التعليمية لأنه لا يتعارض مع أى اتجاه آخر نحو مادة أخرى . فالمبرز في مادة الرياضة مثلا يستطيع أن يتفوق أيضا في التاريخ ، وان تعميم تدريس مادة المجتمع العربى واتجاه المشرفين على بناء المناهج الدراسية - بل اصرارهم على وجوب تدريس تاريخ تطور المواد الدراسية جنبا الى جنب مع محتوياتها - فمثلا تدريس تاريخ العمارة بكلية الهندسة بجامعة الاسكندرية ليتفق تماما مع هذه النتيجة .

الى جانب هذه النتائج التى استقينها من الفروق والاختلافات بين المؤرخين هناك ملاحظات عامة يمكن أن تستنتج من دراسة حالاتهم جميعا ، ولها فائدتها من الناحية التطبيقية في ميدان تعلم التاريخ وهى :

١ - يصعب خلق ميل نحو التاريخ في الأفراد ما لم توجد البيئة الملائمة .
٢ - فاذا وجدت هذه البيئة ، فان ظهور الميل نحو التاريخ يأتى مبكرا ، فاذا لم تظهر ميول مزاحمة فمن المحتمل استمرار الميل نحوه حتى نهاية العمر ، وفى هذا المعنى فقط يمكن أن تتفق مع (راوزى)^(١) ، على أن الميل نحو التاريخ يمكن أن يبدأ منذ المرحلة الأولى ، ويستمر حتى نهاية المراحل التعليمية الاجبارية^(٢) .

٣ - يلعب المستوى الاقتصادى والاجتماعى دورا هاما في ظهور وتطوير الميول نحو التاريخ ، فالسير الاقتصادى ضرورى لتزويد الفرد بالبيئة المساعدة على اظهار هذه الميول ، كتزويد الفرد بمكتبة ملائمة ، ومنحه فرصة للاستعانة بتؤدب خاص ، واطاحة الفرصة لزيارة الأماكن التاريخية .

٤ - للتراث الاجتماعى دوره في خلق الدوافع القوية المشجعة على نمو الميل نحو التاريخ والتخصص فيه .

(١) راوزى (Rowse) المرجع المذكور ص ١٦٦

(٢) المقصود بالمرحلة الإجبارية ، تلك التى لا بد لكل فرد من أن يمضيها بالتعليم الإلزامى . وتختلف مدتها باختلاف الدولة المتفرقة على تنظيم التربية والتعليم ، ففى إنجلترا مثلا تنتهى عند سن الخامسة عشرة ، وتمتد إلى الثامنة عشرة ، كمرحلة جزئية .

- ٥ - يستطيع المدرس أن يقوم بدور هام في بعث الميل نحو التاريخ، كما يساعد على تنشيطه وتمهد التلاميذ بأحسن الطرق التعليمية .
- ٦ - قد يفوق أثر الأسرة تأثير المدرس والمدرسة في توجيه ميول أفراد الأسرة .
- ٧ - الصحة عامل هام في متابعة الدراسات وفي الانتاج المبكر .
- ٨ - القراءة المنتظمة المستمرة الواعية عامل هام يساعد عملية تعلم التاريخ .
- ٩ - دراسة الأشعار التاريخية ، وتعلم اللغات الأجنبية تعين على دراسة التاريخ دراسة مفيدة .
- ١٠ - الكتابة الحرة تمرين مفيد ، كما هي دليل على الميل والاهتمام بدراسة التاريخ .
- ١١ - عملية الاستذكار الواعي أفضل طريقة لكتابة القصة التاريخية كتابة سليمة .
- ١٢ - مناقشة الحقائق واستعادتها بأسلوب الفرد الذاتي ، طريقة مفيدة تؤدي الى فهم الحقائق وتساعد على الوصول الى رأى مستقل .
- ١٣ - معرفة مدلولات الاصطلاحات التاريخية عامل هام يساعد الفرد على التعبير عن أفكاره .
- ١٤ - يؤدي الولع بالتاريخ ، وحب الاستطلاع الموجه الى الرغبة في اكتناء الحقائق والى المثابرة على تعلم هذه المادة .
- ١٥ - تلعب القدرة العقلية العامة دورا هاما في تفهم المعاني التاريخية .
- ١٦ - للعادات الجيدة في الاستذكار أثرها في ابلاغ الفرد تحقيق أهدافه .
- ١٧ - بينما يستطيع الفرد أن يبدأ بتناول المادة التاريخية تناول واعيا في مرحلة مبكرة كما هو الحال مع (مل) يمكن أن تتأخر حتى الربيع العشرين كما هو الحال مع (جيون) .

بما أن هؤلاء المؤرخين الكبار ، قد نشأوا في ظل التربية التقليدية التي سيطرت عليها نظريات الملكات والتدريب الشكلي ، وانتقال أثر التدريب ، فالطرق التي تعلموا بها التاريخ لا تتفق مع مبادئ نظريات التعلم الحديثة ، فمثلا لم تكن طرق المعامل أو المشكلات أو الوحدات قد ظهرت بعد . على الرغم من ذلك كله ، يجب أن نتذكر أن الهدف الذي ترمى إليه هذه الطرق الحديثة هو وقوف التلميذ موقفا ايجابيا في عملية التعلم وقد تبين من التحليل المذكور كيف أمكن بلوغ هذا الهدف بعينه بالنسبة للمؤرخين المختارين في ظل التربية التقليدية . فثريقليان ومل وجيبون كانوا جميعا قراء نهيين متشوفين للمعرفة ، لهم ميل للتعلم ولهم رغبة في تحقيق هدفهم ، وجميعهم قد سجلوا نجاحا ملحوظا في ميدان تعلمهم ، وكانوا منهومين بصفة خاصة بالتاريخ .